١- سيدنا آدم عليه السلام

خلق آدم

سيظل القرآن الكريم - معجزة الله الكبرى - هو الدليل الأول والأخير والأكيد فيما جاء من روايات عن خلق آدم - عليه الصلاة والسلام - وما ذكرته بقية الكتب المقدسة الأخرى إنما تعرض للزيادة والنقصان حسب مقتضيات كل زمان ، وحسب أمزجة الرواة أنفسهم.

ولقد وردت قصة آدم عليه السلام الذى خلقه رب العالمين بيديه.. فى سور قرآنية متعددة منها سورة البقرة - الأعراف - الحجر - الإسراء - الكهف - ص .

ومن هذه الآيات - على حد قول شيخ الإسلام الدكتور/ محمد سيد طنطاوى - ما فيها حديث عن خلقه عليه السلام وأخرى تحدثت عن أمر الملائكة بالسجود له ، وثالثة حكت موقف إبليس من هذا الأمر ، ورابعة ذكرت استخلاف آدم فى الأرض ، وخامسة تحدثت عن إسكانه فى الجنة ، وسادسة ذكرت إغواء إبليس له وما ترتب على ذلك من عقوبات.. وبعض هذه السور وفقًا للرأى السابق قد أوضحت معظم هذه العناصر فى قصة واحدة ، وبعضها تحدث عن عنصر أو عنصرين أو أكثر منها ولكن بأسلوب له مزاياه وتأثيره وتوجيهاته ، وتتقن فيه البلاغة فى أبهى صورها وأسماها وأحكمها[١].

وما يعنينا وفق سياق موضوع هذه الأوراق من حيث الابتلاء.. هو الحديث

---

(١) القصة فى القرآن - د. محمد سيد طنطاوى ، الجزء الأول.

بشيء من التفصيل عن خلق آدم عليه السلام وخروجه من الجنة باعتباره الإنسان الأول في هذا الكون ، ومن بعده زادت ذريته حتى ملأت الأرض وستبقى إلى قيام الساعة، وفي خلقه تتجلى حكمة الخالق العظيم حيث ذكر الحكماء ومن ذلك قولهم: بأن اللَّه خلق الخلق ليظهر وجوده ، ولو لم يخلق لما عرف أنه موجود ، وأيضًا ليظهر كمال علمه وقدرته بظهور أفعاله المتقنة المحكمة ؛ لأنها لا تأتي إلا من لدن قادر حكيم ولكي يعبد فإنه تعالى يحب عبادة العابدين ويحثهم عليها ، وليظهر إحسانه لأنه محسن فأوجدهم ليحسن إليهم ، وليتفضل عليهم فيعامل بعضًا بالعدل ، وبعضًا بالفضل.

وبالبحث والتنقيب اكتشفنا أن هناك مئات من كتب التراث والتفسير التي اهتمت اهتماما بليغًا بقصة آدم عليه السلام.. ومنهم من التزم بصريح نص القرآن ومنهم من زاد وأضاف!.

وبشكل عام فقد ذكر رب العالمين في كتابه العزيز عن خلق آدم عليه السلام : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ ولفظ الإنسان هنا وفق الإجماع يشير إلى أبي الإنسانية سيدنا آدم عليه السلام باعتباره أول خلق اللَّه من بني البشر.

ويؤكد الشيخ محمد متولي الشعراوي في السياق نفسه أن آدم خُلق بيد اللَّه مباشرة فكلنا مخلوقون بقانون الخلق ، ولابد أن يجتمع رجل وامرأة ليتم الخلق وفقًا لسنة اللَّه في خلقه ، ولكن آدم خلقه اللَّه سبحانه وتعالى مباشرة ، وفي ذلك يقول رب العزة ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ إذن فالتسوية من عند اللَّه والروح من عند اللَّه.

وهناك حديث شريف رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن خلق آدم عليه السلام.. وتوقيت ذلك الخلق.. وجاء في هذا الحديث : « أخذ رسول اللَّه ﷺ بيدي [أي بيد راوي

الحديث] فقال: خلق اللَّه التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الإثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة فى آخر الخلق ، فى آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر والليل » أخرجه مسلم والنسائى..

وفى السياق نفسه هناك حديث شريف آخر قال فيه رسول اللَّه ﷺ : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها ». وبخلاف ذلك روى أبو هريرة رضي الله عنه حديثًا شريفًا ثابتًا عن النبى ﷺ قال فيه عن شكل آدم يوم خلقه اللَّه تعالى: قال رسول اللَّه ﷺ : « خلق اللَّه آدم على صورته. طوله ستون ذراعًا ، ثم قال : اذهب فسلم على أولئك النفر وهم نفر الملائكة كانوا جلوسًا ، فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فذهب فقال: السلام عليكم.. فقالوا : السلام عليكم ورحمة اللَّه ، فزادوه: ورحمة اللَّه ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فى طوله ستون ذراعًا ، فلم تزل الخلق تنقص بعده حتى الآن » رواه البخارى ومسلم.

وبطبيعة الحال لا يأتى ذكر خلق آدم عليه السلام ، دون ذكر زوجه حواء ، والتى لولا وجودها ، لما وجد الوعاء الذى فيه يستقر الإنسان منذ كونه نطفة وحتى يوم ميلاده!. وهناك أيضًا كلام كثير أورده المفسرون عن خلق حواء ، والغالب من هذه الآراء فى هذا الموضع قول المفسرين: إنه لما أسكن اللَّه تعالى آدم عليه السلام الجنة كان يمشى فيها وحشيا فلم يكن له من يجالسه ويؤانسه ، فألقى اللَّه تعالى عليه النوم فنام فأخذ اللَّه ضلعًا من أضلاع آدم من شقه الأيسر يقال له القيصرى ، فخلق منه حواء من غير أن يحس آدم بذلك ولا وجد له ألمًا ، ولو أولم آدم من ذلك لما عطف رجل على امرأة.. ثم ألبسها من لباس الجنة وزينها بأنواع الزينة ، وأجلسها عند رأسه فلما هب آدم من نومه رآها عند رأسه[1].

---

(١) عرائس المجالس : للثعلبى.

ورغم هذه التفاسير المختلفة لخلق حواء إلا أن شيخ الإسلام الراحل الإمام محمد متولى الشعراوى قال فى مطلع حديثه عن خلق حواء متسائلاً : وهل هى من ضلع آدم؟ أم أنها مخلوقة بنفس أسلوب خلق آدم؟٠

ثم قال: إن اللَّه سبحانه وتعالى حينما تعرض لقصة آدم عليه السلام فى سورة البقرة لم يوضح كيف تم خلق حواء ولكن الخالق الأعز الأكرم أدخل حواء فى خطابه لآدم عليه السلام: ﴿ وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[البقرة: ٣٥]٠

ويوضح لنا رب العالمين وفق رؤية الشيخ الشعراوى أن كل خلق من خلقه إنما خلق من زوجين وذلك فى قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[النساء: ١]٠

وعلى ذلك فليس لأحد منا أن يقول: إن حواء كانت ضلعًا من آدم ؛ لأنه قد يقول قائل - وله الحق - : ولماذا نأخذ معنى خلق حواء من نفس آدم بمثل هذا التصور؟!٠٠ وبالتالى من الجائز أن تكون مخلوقة من مثل جنس آدم[1]٠

ويستند الشيخ الشعراوى فى هذا التفسير الجرىء٠٠ إلى قول اللَّه تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ ، فلو أن حواء كانت ضلعًا من آدم لقال الحق « جعل منها زوجا » ، ذلك لأن الجعل يعنى الأخذ من نفس المادة وصناعة ما يريد ، إذن معنى قول اللَّه تعالى: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ هو تعبير عن خلق جديد مستقل٠ أى أنه خلق حواء مثلما خلق آدم ، وكما أوضح لنا الحق أنه خلق آدم من طين ، فكذلك خلق حواء٠

---

(١) قصص الأنبياء: محمد متولى الشعراوى ، جزء ١ ٠

الابتلاء فى النفس

قال اللّه تعالى فى سورة طه ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ۞ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى ۞ فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ۞ إِنَّ لَكَ أَلا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى ۞ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى ۞ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى ۞ فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ۞ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ۞ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى ﴾ [طه: ١١٥ - ١٢٣].

فى بداية الأمر.. كان علينا لكى نعيش تلك الحالة النفسية التى ابتلى بها آدم عليه السلام ، بعد طول عيش فى رغد فى جنة طيبة.. وذلك حين أمره رب العزة بأن يترك هذه الجنة التى عاش بها وزوجه ، ويهبط إلى الأرض ، كبداية لابتلائه بالمشقة لابد لنا وأن نعيش حالته النفسية الأخرى فى ظل تلك الجنة التى عاش بها فى نعيم مقيم وحياة رغدة كلها أمان واطمئنان ورزق يأتيه رغدًا بلا عناء أو تعب!.

هذه الحالة صورها لنا القرآن الكريم خير تصوير.. فقال اللّه تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾.

تلك هى البداية التى ارتبطت بالنعيم ، حيث كانت حياة آدم وحواء هى البراءة المطلقة والقدرة التى ليس لها حدود ، وفى هذه الجنة عرف آدم معنى السعادة النفسية العميقة حين صار مع حواء بداخلها.. وكان اللّه قد سمح لهما

بأن يقتربا من كل شيء وأن يستمتعا بكل شيء ، ما عدا شجرة واحدة لعلها شجرة الألم أو شجرة المعرفة[1].

وفى هذه الجنة كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم أيضًا.. لم يعرف آدم عليه السلام ولا زوجه الجوع ولا العرى ولا الظمأ ولا التعب ولا النصب.. فقد كانت حياتهما رغيدة فعلاً بكل المعانى التى نعرفها والتى لا نعرفها.. ثم جاءت غواية الشيطان له ولزوجه كى تضع حدا لهذا العيش الرغيد ، وبالتالى انتقل إلى حياة أخرى فيها الشقاء والتعب والخوف والعداوات والحروب ، وأشياء أخرى كثيرة عرفنا بعضها ولا يزال البعض الآخر من هذه الأحداث فى علم اللّه إلى يوم القيامة.

من هنا جاء قول اللّه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾. وفى تفسيره لهذه الآية قال الدكتور محمد سيد طنطاوى: « قال اللّه تعالى: لقد عهدنا إلى آدم وأوحينا ألا يأكل من شجرة معينة من قبل أن نخبرك بذلك.. فنسى العهد الذى أخذه على نفسه بعدم الأكل منها.. ولم نجد له عزيمة صادقة فى التذكر لما أمرناه به[2].

ولإحساس آدم عليه السلام بحجم المصيبة والبلية التى أصابته من جراء هذه المعصية ، وهذا النسيان.. قوله على حد ما نقله إلينا ابن عباس.. عندما صدر الأمر الإلهى بخروجه من الجنة هو وزوجه وثالثهما الشيطان: « رب كنت جارك فى دارك ليس لى رب سواك ولا رقيب دونك آكل فيها رغدًا وأسلك حيث أحببت فأهبطتنى إلى هذا الجبل (جبل سرنديب بأرض الهند).. وكنت أسمع صوت الملائكة وأراهم كيف يحفون بعرشك وأجد ريح الجنة وطيبها ثم أهبطتنى إلى الأرض وحطتنى إلى ستين

---

(١) أنبياء اللّه ، أحمد بهجت.

(٢) القصة فى القرآن الكريم. د. محمد سيد طنطاوى ، جـ١ .

ذراعًا فقد انقطع عنى الصوت والنظر وذهبت عنى رائحة الجنة ، فأجابه تعالى: بمعصيتك يا آدم - فقال آدم : ذلك بك يا رب »[1].

وما نود أن نشير إليه فى هذا السياق أيضًا أن أكبر ابتلاءات آدم فى حياته ومن بعد خلقه قد تمثل فى عصيانه لرب العالمين.. واتباعه وزوجه غواية الشيطان.. هذه الغواية كان مصدرها للأسف حرص آدم عليه السلام ، على نيل درجة الخلد ، بالإقبال على الأكل من تلك الشجرة المحرمة!.

وحينما وقع هذا الأمر الذى قدره رب العالمين مسبقًا ظهرت أولى بوادر هذه المصيبة وهذه البلية ، فشاهد عورته وزوجه كذلك! ، كما أصبح فى حاجة إلى مكان يفرغ فيه ما فى جوفه من آثار تناوله طعام هذه الشجرة!.

ولقد بين لنا رسول اللَّه ﷺ حال آدم عليه السلام بعد ارتكابه لهذه المعصية بقوله فى حديث شريف رواه على بن عاصم عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبى بن كعب قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إن اللَّه خلق آدم رجلاً طوالاً كثير الشعر كأنه نخلة سحوق. فلما ذاق الشجرة سقط عنه شعره وأول ما بدا منه عورته ».

وفى تحليل لطيف للأستاذ الدكتور رشدى البدراوى عن هذه الحالة التى كان عليها سيدنا آدم - وهو تحليل محمود على كل حال - قال فيه: « وإذا كان ذلك بالنسبة لآدم فلابد أن شعر حواء كان طويلاً ومسترسلاً يغطى كل جسمها ، وقد يكون فى الشجرة التى أكلا منها مادة جعلت شعرهما يسقط ، أو أن شعرهما سقط من هول ما اقترفاه من معصية اللَّه ، وبالتالى بدت لهما عوراتهما[2].

---

(١) قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس - للثعلبى.

(٢) المصدر السابق ، د. رشدى البدراوى.

وكذلك أورد لنا الدكتور البدراوى رأيا تفسيريا آخر قال فيه: ما حدث هو أن أكل ثمار الجنة التى كانت مباحة لهما كان لا يتبقى منه شىء من الفضلات فى أمعائهما فكانا لا يحدثان أى بول أو براز. فلما أكلا من الشجرة بدأت حاجتهما إلى التبول وإلى الغائط ، ورأيا النجاسة من سوءاتهما فحاولا إخفاءها.

وعندما سئل الشيخ محمد متولى الشعراوى عن إمكانية وجود مثل هذه المأكولات التى لا ينتج عنها فضلات داخل جسم الإنسان - مثلما كان حال آدم عليه السلام فى الجنة قبل المعصية - قال: إن هذا حق.. وضرب مثالاً حيويا على ذلك بالطفل الصغير الذى يتغذى داخل بطن أمه بدون إخراج فضلات.

ولما بانت سوءات آدم وزوجه من بعد ارتكاب معصية الأكل من الشجرة المحرمة ، كمرحلة أولى من مراحل إصابته بالابتلاء فى النفس ، لحقت به المرحلة الثانية ، عندما أمره رب العالمين بالهبوط من الجنة إلى الأرض التى سوف يشقى فيها هو وذريته ، ويعرى ويكد ويتعب ، بل ويجاهد نفسه والشيطان ، ويظل من خلال ذريته على هذه الحالة من الصراع إلى يوم القيامة.

ولقد ظهرت بوادر ونتائج هذا الابتلاء سريعًا بعدما هبط آدم من الجنة حيث ذكر الرواة فى معظم المصادر الإسلامية أن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض وأصيب جسده من هواء الأرض وشعر به اشتكى وحشة جسده ، وكم قد اعتاد هواء الجنة فشكا ذلك لجبريل ، فقال : إنك تشكو العرى فأنزل اللّه عليه ثمانية أزواج وهى المذكورة فى سورة الأنعام ، من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين ، ثم أمره أن يذبح كبشًا منها فذبح ، ثم أخذ صوفه فغزلته حواء ونسجه آدم ، فجعل منه جُبة لنفسه وجعل لحواء درعًا وخمارًا فلبساه وبكيا على ما فاتهما من لباس الجنة[1].

---

(١) قصص الأنبياء للثعلبى. مصدر سابق.

ولنا أن نتصور بمفهومنا المعاصر، تلك الحالة النفسية السيئة التى كان عليها آدم عليه السلام عندما خرج من الجنة، ونزل إلى الأرض وحيدًا، شقيا ومتعبًا.. خائفًا، لا يعرف من أمر هذه الأرض أى شىء، ولا كيف يتعايش مع ظروفها، ولولا صبره وقوة تحمله لتلك الحياة الجديدة، ومساندة رب العزة له فى هذه المحنة، لما عمرت الأرض وزاد الخلق، بل وربما ضاق آدم عليه السلام بهذا المكان الجديد الذى وجد نفسه وزوجه فيه بعد طول عيش طيب فى الجنة.

وبعد إحساس آدم بالبرد الذى أصابه، ولجوئه للدعاء إلى الله بأن ينزل عليه ما يستر جسده اتقاء شر هذا البرد.. أخذ يشعر وزوجه بالجوع!.

ولما لم تكن ثمار الأرض فى متناول يده آنذاك كثمار الجنة، وبالتالى كان عليه أن يتسلق الأشجار ليصل إلى تلك الثمار. وكذلك أصابه الظمأ، فأخذ يبحث عن الماء حتى اهتدى إلى نهر أو بئر، وشعر بلفح الشمس وحرها فاحتمى بظل الأشجار.

وبعد أن استقر آدم عليه السلام فوق الأرض، وأخذ يألف هذه الحياة الجديدة التى فرضت عليه فرضًا مع قسوتها وشدة ما بها من آلام وابتلاءات، جاءته المصيبة الثالثة، وهى الأهم فى تصورنا فيما ابتلاه رب العالمين.. وذلك حين أخذ الشيطان يلاحقه وزوجه، بل وذريته فى كل مكان يرتاده، وأخذ يوسوس له تارة بالعصيان وتارة بالهموم. وكان سبيل آدم للفوز فى هذه المعركة، هو تمسكه بقضاء الله وإيمانه بعدالته وقدرته. وأنه قد تاب عليه، وبالتالى أخذ يُعد العدة جيدًا للفوز على الشيطان اللعين.. الذى حين فشل فى محاربة آدم عليه السلام لجأ إلى أولاده حيث ظل يسعى وراء أحدهما حتى ارتكب أول جريمة قتل فوق سطح الأرض. وتلك كانت المصيبة أو البلية العظيمة الأخرى فى حياة آدم عليه السلام.. وقد اختبره الله بها فى ولديه.. بل واختبر بها كل ذريته من بعده.

والقرآن الكريم قد بين لنا بدايات هذه المعركة الشرسة بين الشيطان وبين الإنسان منذ أن رفض إبليس السجود لآدم عليه السلام من بعد خلقه!. وقوله وفق ما جاء بالقرآن الكريم: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾.

ليس هذا فقط.. بل ولقد أعلن الشيطان نفسه عن استعداده لمواصلة هذه المعركة مع أبناء آدم إلى يوم القيامة... فقال وفق ما جاء بالقرآن الكريم: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ* ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِن خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾.

وبالفعل لم يكذب الشيطان فى هذا الوعيد.. فأخذ فى محاربة آدم وذريته وظل على ذلك حتى يومنا هذا ، ومازال الإنسان من ذلك اليوم يعيش فى ظل هذه الحروب التى جرت عليه ويلات ومصائب كثيرة فى نفسه وفى أهله وفى ماله!.

الابتلاء فى الولد:

لقد وردت قصة ابنى آدم فى آيات كريمات من سورة المائدة.. وفيها يقول رب العزة سبحانه وتعالى:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ۞ لَئِن بَسَطتَّ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ۞ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ۞ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ۞ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧ - ٣١].

فبعد أن استقر سيدنا آدم عليه السلام على وجه الأرض ، متقبلاً قضاء الله وقدره

بالرضا والصبر على ما ابتُلى - كما سبق أن أوضحنا - أخذ يمارس حياته البشرية هو وزوجه.. وكان من أولى خطوات هذه المعيشة: الإنجاب!. إذ أوحى اللَّه إليه أنه سوف يكون أبا لكل البشرية من بعده.. ويكون إنجابه للأولاد والذرية هو أساس إعمار هذه الأرض.

ولقد ذكر السلف الصالح روايات كثيرة عن ظروف هذا الإنجاب وطريقته. فذكر السدى عن أبى صالح، عن ابن عباس وعن مرة بن مسعود عن ناس من الصحابة: أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الآخر.

وقال أهل العلم بقصص النبيين وأخبار الماضين: إن حواء كانت تلد لآدم توأمين فى كل بطن غلامًا وجارية، وكان جميع من ولدته حواء أربعين ذكرًا وأنثى فى عشرين بطنًا. أولهم «قابيل» وتوأمته «أقلما» وآخرهم «عبد المغيث» وتوأمته «أمة المغيث»، ثم كثر اللَّه فى نسل آدم كما قال رب العزة: ﴿ **يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾[1].

وقال ابن عباس: لم يمت آدم حتى رأى من ولده وولد ولده أربعين ألفًا.

وبطبيعة الحال لم تكن مشاغله وحياته والبحث عن الرزق الحلال تلهيه عن إسداء النصح لهؤلاء الأولاد والأحفاد بضرورة اتباع منهج اللَّه، والابتعاد عن طريق الشيطان، فكان منهم من عمل بنصائحه، وأعرض البعض. وقد وقع أحد أبنائه فريسة سهلة لغواية الشيطان واتباع منهجه.. مما عرضه لارتكاب خطأ كبير فى حق أخيه عندما طوعت له نفسه أن يقتله!.

وفى ظل هذا الحدث الغريب، واجه آدم عليه السلام الابتلاء الجديد فى ولديه.. أحدهما قتل الآخر.. ولم يكن أمامه أيضًا إلا الصبر وقبول قضاء اللَّه فى رضًا وعدم جزع. ولقد حدثنا القرآن الكريم بشىء من التفصيل عن هذه الجريمة التى وقعت

---

(١) قصص الأنبياء، عرائس المجالس للثعلبى، مصدر سابق.

لأول مرة فوق سطح الأرض ، ولنا أن نعيش تلك اللحظات الحزينة التى عاشها هذا النبى الكريم.. حين بلغه نبأ هذه الجريمة.. ونتصور تلك الحالة النفسية السيئة التى كان عليها آدم عليه السلام ، فى ظل هذا الجنون الذى وقف وراءه بشدة الشيطان الرجيم. إنها كانت بلا شك مصيبة كبيرة وبلية عظيمة واختبارًا من اللّه لا يقدر على تحمله إلا هؤلاء المصطفون الأخيار من عباد اللّه من الأنبياء والرسل. ولا نعرف بالضبط.. هل وقعت بعد الخروج من الجنة مباشرة أو بعد هذا التاريخ بسنوات!.. ومهما كان هذا التاريخ.. فإن هذا النبى الكريم وجد نفسه وفى خضم مهمته المقدسة التى كُلف بها لإعمار الأرض.. داخل مصيبة جديدة أودت فى النهاية بحياة أحد ولديه.. وقضت على الثانى بالعقاب الشديد والتشرد..

إن الوقوف.. بلا شك على تفاصيل هذه الجريمة ، سوف يقربنا أكثر من تفاصيل هذا الابتلاء الجديد فى حياة آدم عليه السلام.. وهو النبى الكريم.. وما نود أن نؤكده فى هذا السياق.. أنه على الرغم من أن القرآن العظيم قد بين أركان هذه الجريمة وأسبابها ودوافعها.. فإن العديد من المفسرين ومن المؤرخين أيضًا لم يتوقفوا عند حدود كلمات أو معانى آيات القرآن الكريم.. بل ذهبوا هنا وهناك لأجل إبراز بعض الجوانب المباشرة وغير المباشرة فى قصة قابيل وهابيل.. حتى أنهم فيما ذهبوا إليه لم يتركوا أية تفاصيل ولو بسيطة فى هذه القصة.. كما حاولوا فى السياق نفسه تحديد ذلك الزمان الذى وقعت فيه هذه الجريمة.. وتوقيت ميلاد هذين الأخوين.. وكلها اجتهادات لا تضيف فى تصورنا أى جديد عما ذكره القرآن الكريم.. وهى اجتهادات فى الواقع منقولة عن الكتابات الإسرائيلية ، وتفاسير أهل الكتاب.

ولقد أحسن شيخ الإسلام الإمام الراحل الدكتور عبد الحليم محمود حين اكتفى فى تفسيره الآيات القرآنية المرتبطة بقصة قابيل وهابيل بظاهر الكلمات التى تحدثت عن هذه القصة ، والتى وردت بالقرآن الكريم فقال: « كان لآدم ابنان:

هما قابيل وهابيل ، وكان قابيل هو الأكبر قاسيا بقلب غليظ الطبع لا يستشعر التقوى ، ولا يتحرك للصالحات ، وكان هابيل هو أصغرها على العكس من ذلك.. تقيا صالحًا مرضيا عنه من اللَّه تعالى.. وتنافسا فى تقديم ما يتقرب به إلى اللَّه ، وقدم قابيل شيئًا تافهًا رديئًا لا قيمة له ، وقدم هابيل من أنفس ما عنده فتقبل اللَّه من هابيل ، ولم يتقبل من قابيل ، فحز ذلك فى نفس قابيل »[1].

وكانت النتيجة التى وقف وراءها الشيطان بقوة.. حيث طوعت له نفسه قتل أخيه وهو ابن أمه وأبيه ، فأضله وأصبح بذلك من شيعة إبليس فى الشر والإثم.

ويتساءل الدكتور عبد الحليم محمود؟: ما سبب هذه الجريمة: وفى إجابته يقول: إن ظاهر النص القرآنى يفيد بأن السبب هو حقد النفوس الخبيثة على النفوس الصافية الطاهرة ، وهو سبب يوجد فى كل زمان ومكان وهو سبب عام يدخل فى نطاقه أسباب خاصة.

ولكن ماذا حدث بعد أن علم آدم عليه السلام .. بوقوع هذه المصيبة فى أولاده؟!.. إن ظاهر القصة القرآنية والعديد مما ذكره المفسرون يوضح لنا أن آدم عليه السلام كان غير موجود فى المكان الذى وقعت فيه هذه الجريمة!.. وربما كان مشغولاً فى جمع الثمار والزروع ، والاجتهاد فى الرزق مع بقية أولاده وذريته!.

ولكنه حين حضر وعرف بهذه المصيبة كان ابتلاؤه آنذاك عظيمًا.. وهذا يفهم جيدًا من بعض الروايات التى سردها سواء المفسرون أو المؤرخون.

ومما قيل فى شأن حال سيدنا آدم عليه السلام حين عرف بخبر هذا الابتلاء: إنه لما قتل قابيل هابيل مكث آدم مائة سنة لا يضحك ، وقيل أيضًا إنه لما صبر على هذه البلية الجديدة فى حياته ، وهب اللَّه له سيدنا شيثًا الذى ولد بعد هذه الجريمة بخمسين سنة.

---

(١) مع الأنبياء والرسل- الإمام الدكتور عبد الحليم محمود.

هذا النبى من ولد آدم عليه السلام وقد علمه الله ساعات الليل والنهار، وعبادة الخلق فى كل ساعة منها، كما أنزل الله عليه خمسين صحيفة، وكان وصى آدم وولى عهده.

وقيل: إن عمر آدم عليه السلام حين وُلد آخر أبنائه - النبى شيث - مائة وثلاثون سنة، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة، وكان عمر شيث يوم ولدت له أنوش مائة وخمسا وستين، وعاشا بعد ذلك ثمانمائة سنة وسبع سنين، وولد له بنون وبنات غير ابنته أنوش.

ومعنى كلمة شيث « هبة الله »، وكانا أسمياه ذلك؛ لأن الله رزقهما به بعد مقتل هابيل، وفى حديث صحيح لأبى ذر عن رسول الله ﷺ: « إن الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف، على شيث خمسين صحيفة »[1].

بل وأكثر من ذلك قال المفسرون والرواة: إن الله أراد أن يعوض آدم عليه السلام بفقدان ابنه هابيل.. بعدما رزقه بالنبى شيث.. حيث جعل من ولده هذا خليفة من بعده.

ومما يروى فى هذا الشأن ما قالوه بسندهم: عن محمد بن إسحاق قال: ولما حضرت الوفاة آدم عهد إلى ابنه شيث وكتب إليه وصيته وأمره أن يخفيها عن ولده قابيل، حيث خاف عليه أن يقتله حسدًا بعدما خصه بالعلم!.

هذا عن أمر هابيل المقتول.. وأمر شيث الذى رزق به آدم عوضًا عن ابنه.. فما بالنا بالذى وقع للقاتل قابيل؟!. فقد قيلت فى شأنه أقاويل كثيرة.. ومن أشهرها أن قابيل عوجل بالعقوبة يوم أن قتل أخاه فعلقت ساقه إلى فخذه وجعل وجهه إلى الشمس كيفما دارت.

وأوردت بعض الروايات الأخرى الشىء الكثير عما حدث لقابيل جزاء

---

(١) قصص الأنبياء طبعة جديدة لابن كثير تحقيق محمد عبد الملك الزغبى.

جريمته وكلها تقريبا منقولة من تفاسير أهل الكتاب ، وكلها أيضًا تثير فى النفس الشجن والألم على ما أصاب نبى اللّه آدم من ابتلائه فى ولديه.. أحدهما قتل ظلمًا والثانى أُبعد وشُرد وعُذب ، ودخل النار عقابًا على ما اقترفت يداه من جريمة.. بل وارتبطت بهما عبر التاريخ قصص الجريمة.. كما أصبح قابيل عنوانًا لكل ظلم يرتكبه بنى الإنسان ، ورائدًا من رواد الجريمة الأوائل فى البشرية. وهذا معناه ببساطة أن آدم عليه السلام سوف يظل مبتلىً بهذا الابن العاق حتى تقوم الساعة!.

* * *